



مبادرة
الإصلاح
العربي



سلسلة مسارات الشباب

الشباب العراقي في سياقات الصراع:

التحزب والاستراتيجيات الانقسامية

واستحالة لَمّ الشمل

عادل بخاوان



بالشراكة مع

الكاتب

عادل بخاوان، المدير التنفيذي للمركز الفرنسي للأبحاث والدراسات العراقية

© 2022 مبادرة الإصلاح العربي | جميع الحقوق محفوظة.



يسمح هذا الترخيص للقائمين بإعادة الاستخدام بتوزيع المواد وإعادة دمجها وتكييفها والبناء عليها بأي وسيط أو تنسيق لأغراض غير تجارية فقط، طالما يتم الإسناد إلى المنشئ. إذا قمت بإعادة مزج المواد أو تكييفها أو البناء عليها، فيجب عليك ترخيص المواد المعدلة بموجب شروط مماثلة.

الصورة: شباب يحملون علم العراق الذي يبلغ طوله 500 متر خلال مسيرة لنشر رسالة الوحدة التي نظمها ناشطون شباب في كركوك، العراق في 23 تشرين الأول / أكتوبر 2017.

تموز/يوليو 2022

المحتويات

- 1 تمهيد
- 3 ملخص تنفيذي
- 4 مقدمة
- 5 المسارات والاستراتيجيات: كيف يستطيع الشباب بناء حياتهم في سياقات النزاع/ ما بعد النزاع؟
- 6 شباب الدولة الفاشلة: تنمية مجتمع في ظل انعدام الثقة
- 7 الشباب في مجتمع الميليشيات: انقسامات هيكلية وتصورات متعارضة
- 8 الشباب والحركة الاحتجاجية: طيف من الانخراط والارتياب والعدائية
- 9 الشباب وأحلامهم المنقسمة في بلد مليء بالنزاعات
- 10 النساء الشابات في مجتمع ذكوري مهيمن: استحالة الظهور
- 11 الشباب في سياق عنف معمم: التطبيع والاستيعاب الداخلي مقابل الرفض
- 11 خاتمة

تمهيد

ما هي العواقب المختلفة على مسار حياة الشباب عندما يبلغ سن الرشد في سياق الصراع؟ ماذا يحدث للخطط المتوقعة للمستقبل -من تعليم وزواج والعمل في أول وظيفة- عندما تتضرر بشدة بسبب اندلاع الصراع، وما هي الآليات والاستراتيجيات المختلفة التي يتبناها الشباب في مواجهة مثل هذه الاضطرابات؟ وكيف يمكن للدخول في مرحلة البلوغ في سياق عربي مهلهل وغير مستقر -حيث يكثُر العنف، ويمكن أن تتقلب الأدوار التقليدية للجنسين، وتنتشر الصدمات النفسية- أن يشكل القيم والمعتقدات السياسية الفردية، وكذلك العلاقات الاجتماعية مع المجتمع وداخل الأسرة؟ عند استكشاف كيف يواجه الشباب حياتهم وكيف يعملون على بناء أنفسهم عندما يكونون قد ناهزوا البلوغ في سياق الصراع، تُظهر الأدلة أن الصراع يمثل منحة ومنحة للشباب من حيث فرص كسب العيش، ومسارات الرفاهية، وتجارب الشمول السياسي، ومشاعر التمكين وعدم التمكين. وفي الوقت نفسه، فإن المسارات التي يسلكها الشباب خلال سياقات الصراع ليست خطية ولا تعتمد بشكل صارم على هيكل الفرص المتاحة. في الواقع، إن الطريقة التي يتخذ بها الشباب القرارات فيما يتعلق بحياتهم، والعوامل التي تؤثر على اتخاذهم للقرار؛ توضح العمليات المعقدة التي تعتمل فيها عوامل سياقية محددة، منها هيكل العلاقات الاجتماعية، والمكانة داخل ديناميكيات الصراع، وغيرها من الأمور. وبهذا المعنى، فإن مسارات الشباب في سياقات الصراع متنوعة للغاية وغالباً ما تكون غير متوقعة، وأيضاً يمكن أن تتغير جذرياً مراراً وتكراراً. ورغم كل هذا، فإن فك هذا التعقيد أمر بالغ الأهمية إذا أردنا فهم الطرق المتعددة -وحتى المتناقضة- التي يؤثر بها الصراع على مسارات الشباب. كما أنه مهم لفهم الآثار الأوسع على المستوى المجتمعي من حيث الأنماط المستقبلية للمشاركة السياسية والمعتقدات والسلوكيات، وكذلك العلاقات الاجتماعية والجنسية داخل المجتمعات والأجيال، وبين بعضهم البعض.

في الفترة من 2020 إلى 2021، نفذت «مبادرة الإصلاح العربي» برنامجاً بحثياً واسعاً للتحقيق في المسارات الشخصية للشباب في الصراع، مع التركيز بشكل خاص على أولئك الذين بلغوا سن الرشد منذ عام 2011 في ليبيا والعراق وسوريا. يسلط هذا البحث -الذي يستند إلى 75 مقابلة نوعية شبه منظمة في كل بلد، وكذلك مناقشات جماعية مركزة حيثما أمكن- الضوء على التصورات وعمليات صنع القرار لدى الشباب، وأثارها على المدى الأوسع نطاقاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وشخصياً. وبتعبير أدق، يتتبع هذا البحث مسارات الشباب والآثار الاجتماعية والسياسية الأوسع من خلال تحليل يشمل ثلاثة مستويات متميزة؛ فعلى المستوى الجزئي، تقصّي البحث الروايات الشخصية للشباب وكيف ينظرون إلى تأثير الصراع عليهم من حيث بنائهم لذاتهم. وقد شمل ذلك التحقيق في تطلعات الشباب ومصروفات اتخاذ القرار لديهم، واستراتيجيات المواجهة التي توصلوا إليها، وكذلك كيف شعروا بالتمكين/عدم التمكين في سياق الصراع. أما على المستوى المتوسط، فقد استكشف البحث العوامل السياقية التي تتوسط عملية صنع القرار لدى الشباب وهوامش مناوراتهم، بما في ذلك اقتصاديات الحرب وبناء السلام، والبرمجة الحالية والمساعدات الخارجية للشباب، وتحويل هيكل السلطة والتسلسل الهرمي الاجتماعي، والتقلبات العرفية، ثم تبع ذلك إجراء تحليل لفهم كيف تشكل المواقع المختلفة على السلم الاجتماعي (العرق، الدين، الجنس، الطبقة... إلخ) روايات واستراتيجيات مختلفة. وأخيراً، على المستوى الفوقي، سعى البحث إلى تقييم المحتوى المتنوع للسياسة وبناء السلام فيما يتعلق بقيم الشباب، والسيطرة والفعالية، وأشكال المشاركة، مع التركيز بشكل خاص على المشاركة السياسية الهادفة للشباب، والممارسات اليومية لبناء السلام، وترسيخ المساواة بين الجنسين متى وأينما وجدت.

الدراسة المقدمة هنا تنقل نتائج البحث الذي أجري مع الشباب العراقي، حيث أجريت المقابلات الميدانية في عام 2020 في مدينتي الموصل والبصرة، وهما مواقع حدثت فيها أنواع مختلفة من الصراع، بدءاً من الصراع العنيف مع «داعش» إلى الصراع مع حركة تشرين الاحتجاجية، الذي أحدث تغييرات اجتماعية عميقة. ومن خلال تقييم هذه المقابلات المتعمقة والشخصية للغاية، تساهم هذه الدراسة في معرفة ورؤى جديدة فيما يتعلق بكيفية تأثير الانتقال إلى مرحلة البلوغ في ظل الصراع على اكتساب الخبرات والمهارات والاحتياجات والتطلعات والتغييرات في تصورات ووجهات نظر الشباب العراقي. يستكشف البحث المقدم هنا كيف يروي الشباب مساراتهم الشخصية، وتأثير الأحداث على حياتهم الخاصة، وأيضاً يعرض البحث رؤيتهم للتطور السياسي في البلد وطبيعة الصراع نفسه. تستكشف الدراسة العوامل (الأخلاقية أو الأيديولوجية أو السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الشخصية أو غيرها) التي تحفز قراراتهم أو تقودها، وكيف يتصورون الفرص والقيود التي تقابلهم في المسارات التي اختاروها لأنفسهم، وكيف يجدون فرصهم أو يصنعونها. تبحث الدراسة أيضاً في كيفية تغيير الأعراف والأدوار الجنسانية نتيجة للصراعات، وما تأثير هذه التغييرات في علاقاتهم الاجتماعية وتطلعاتهم للمستقبل. أخيراً، تلقي الدراسة الضوء على المواقف الشخصية للشباب العراقي تجاه العنف واللاعنف، وما تعنيه لهم بالفعل مفاهيم مثل السلام والعدالة والمصالحة وكيف تبدو في الممارسة العملية، ومدى إدراك الشباب للفاعلية في حياتهم والأدوار التي يسعون إلى لعبها في تجديد النظام السياسي والعقد الاجتماعي في العراق.

عند استكشاف هذه الموضوعات المتنوعة، يظهر أن هذه الدراسة لها أيضاً صلة وثيقة بالسياسة. يواجه الشباب أشكالاً معينة من اللايقين وانعدام الاستقرار تجعلهم من بين أكثر الفئات السكانية هشاشة في الانتقال من مرحلة الصراع وإعادة الإعمار¹ ومع ذلك فهم في الوقت نفسه فئة ديموغرافية لها دور رئيسي في الحفاظ على الاستقرار والسلام، وفي قيادة عمليات تحول الصراع على نطاق أوسع. وعلى الرغم من ذلك، فغالباً ما يكون الشباب -باعتبارهم مجموعة سكانية فرعية- خاضعين للتحقيق والمراقبة، ولا يحصلون على خدمات كافية من صانعي السياسات وأصحاب المصلحة الخارجيين الذين ينفذون برامج الإغاثة من الصراع والتعافي بعد الصراع. يذهب كثير من الاهتمام للأطفال (وأولئك الذين هم في سن المراهقة أو أصغر)، نظراً للمقاربات القائمة على الحقوق التي تحظى بشعبية كبرى على الساحة العالمية، ووجود أطر سياسية واسعة النطاق، والمنظمات التي تهتم بهم مثل اليونيسف. في الوقت نفسه، غالباً ما يهيمن أصحاب المصالح الكبار (مثل النخب الإقليمية، وزعماء القرى، وما إلى ذلك) على عملية الانتقال في سياقات ما بعد الصراع، مما يحد من مشاركة الشباب، لا سيما في العمليات السياسية. نتيجة لذلك، يمكن أن

يجد الشباب أنفسهم مستبعدين بشكل مضاعف. وعلى القدر نفسه من الأهمية، غالباً ما تُفهم الأفكار الخطائية للشباب في سياقات الصراع ضمن الأطر والتعريفات الأيديولوجية التي يمكنها أن تعزز طائفة معينة من البرامج التي يمكن فصلها عن تجاربهم المعيشية واحتياجاتهم وفهمهم. تميل الخطابات السائدة المحيطة بالشباب في سياقات الصراع إلى التركيز على الشباب باعتبارهم استثمارات تنموية، أو تهديدات للأمن، أو عوامل للتغيير.² تعمل مثل هذه الخطابات إلى حد كبير على توجيه أنواع التدخلات التي تقوم بها الجهات الخارجية التي تسعى إلى التخفيف من حدة الصراع أو تعزيز بناء السلام. ومع ذلك، فإن مثل هذه التدخلات والمفردات يمكن أن تكون مشوبة بالموافق الأبوية وفرض معايير وتوقعات اجتماعية وثقافية منفصلة عن الطريقة التي ينظر بها الشباب أنفسهم إلى حياتهم، وتفسيراتهم لسياقهم، وطموحاتهم لأنفسهم ومجتمعاتهم.

بنشر هذه الدراسة، تساهم «مبادرة الإصلاح العربي» بتقديم معرفة جديدة عن الشباب العراقي في سياق صراع ما بعد «داعش» وانتفاضة تشرين الحالية، مع الأخذ في الاعتبار كيف يروي الشباب أنفسهم قصتهم وكيف يتنقلون في مساراتهم، وما هي خياراتهم وتطلعاتهم وخطواتهم، وعدم تجانس التجربة المعيشية للشباب، وتفسيرات هذه التجربة. في المقابل، يمكن استخدام هذا البحث القائم على الأدلة لتكثيف السياسات والبرامج والاستجابات المصممة للشباب ومعهم وبواسطتهم للتأكد من أنهم يأخذون في الاعتبار الحقائق المتنوعة عن الشباب العراقي اليوم، وللتأكد من أنهم لم يُتركوا وحدهم في فترة ما بعد الصراع.

ساراه آن رانيك

نائبة المدير - مبادرة الإصلاح العربي

ملخص تنفيذي

منذ عام 2014، يعكس واقع العراق مجتمعاً في حالة تشرذم إقليمي وسياسي واجتماعي واقتصادي كامل، وهو سياق يكون فيه مفهوم فترة «ما بعد الصراع» دقيقاً ومتعدد الطبقات. رغم أنه من الواضح أن الحرب الإقليمية ضد «داعش» قد انتهت نسبياً بنهاية عام 2017، إلا أن الصراع قد عاود الظهور بشكل منتظم ولا تزال العناصر المسببة للعنف موجودة. وبالمثل، فقد بشرت حركة الاحتجاج الجماهيري في تشرين الأول/أكتوبر 2019 بنوع جديد من الصراع الاجتماعي الذي يشهد موجات من الحشد والتفكيك ضمن سياق أوسع من القمع والاضطراب. وعلى هذا النحو، دخل العراقيون مرحلة جديدة في تاريخهم، اتسمت بأشكال مختلفة من انعدام الأمن (المادي والاقتصادي والصحي) وكذلك صاحبها مطالب جديدة على عاتق الدولة. يركز البحث الذي أجريته هنا على مسارات الشباب العراقي في هذه المرحلة الجديدة، وعلى وجه الخصوص يسلط الضوء على العوامل التي تحرك قراراتهم، وكيف يرون الفرص والقيود، وكيف ينظرون إلى مستقبلهم، وكيف يقيمون برامج الحكومة/المنظمات غير الحكومية التي تستهدفهم.

استناداً إلى 75 مقابلة شبه منظمة أجريت في عام 2020 مع شباب في الموصل والبصرة، توضح الروايات الشخصية للشباب أن الظروف المجتمعية الخاصة بالمنطقة تستلزم مسارات مختلفة للشباب، وأن ثمة عوامل متعددة تدفع الشباب إلى اتخاذ القرار. وبالتالي من المستحيل الحديث عن الشباب العراقي باعتباره كتلة واحدة. بل كل ما يمكن رؤيته هو درجة عالية من الانقسام والافتراق فيما يتعلق باستراتيجيات العمل، ووجهات النظر تجاه العمل الجماعي، وتصورات جدّ مختلفة لكيفية حدوث الاستيعاب والتكامل في سياق أوسع لدولة -من وجهة نظر شبابها- لا يمكن الوثوق بها.

في محافظة نينوى، يواجه الشباب حالة من الإقصاء الهيكلي والمنهجي التاريخي الناتج عن تنفيذ الحكومة المركزية ذات الأغلبية الشيعية في بغداد مرسوم اجتثاث البعث¹، وما يترتب على ذلك من نقص في الوصول إلى الخدمات. لكن بعد هزيمة «داعش» وخسارتها السيطرة على الأرض في عام 2017، ظهر نوع جديد من المسار لشباب هذه المنطقة، شكله الخوف من الارتباط بإرهاب «داعش»، وكذلك انتشار الميليشيات الشيعية، مما أجبر الشباب على الانطلاق في مسارات تمكنهم من تحقيق الاعتراف بكونهم منفصلين عن «داعش». على النقيض من ذلك، يشارك الشباب في البصرة في أنواع أخرى من الأعمال التي تعكس الحقائق المختلفة لخلفياتهم العرقية والطائفية -وأيضاً الاختلافات النابعة من التباين الجغرافي- في إطار تجربة الصراع. انضم العديد من الشباب بشكل جماعي ضخم إلى منظمات الميليشيات بين عامي 2014 و2018، وقد كانوا ينظرون إلى انضمامهم لها على أنه عمل وطني. لكن بعد هزيمة «داعش»، وجدوا أن جميعهم عاطلون عن العمل، ودون أي آفاق اقتصادية أو تعليمية. وبسبب شعورهم بتخلي الحكومة العراقية عنهم، اندفع هؤلاء الشباب للانخراط في حركات احتجاجية مختلفة مقدمين مطالب جديدة من الدولة.

ضمن هذه السياقات المختلفة، يدير كل نوع من الفاعلين الفرص والقيود الخاصة به بشكل مختلف. ففي الموصل -في سياق قمع الميليشيات وإرهاب «داعش»- يعطي الشباب الأولوية للقيود الأمنية والبقاء على قيد الحياة. وعلى النقيض من ذلك، فإن الشباب في البصرة مدفوعون بشكل أساسي بالحاجة إلى البقاء على قيد الحياة، لا سيما أولئك المنخرطين في الحركة الاحتجاجية. البعض يريد فقط البقاء على قيد الحياة لمواصلة النضال الاجتماعي والسياسي، والبعض الآخر يركز على النضال الثوري. وتوضع كل هذه الاستراتيجيات في مواجهة معدل بطالة مرتفع للغاية بين الشباب، الذين يواجهون نقصاً شبه كامل في الفرص.

تسلط روايات الشباب في محافظتي نينوى والبصرة الضوء بوضوح على تنوع مسارات الشباب حسب سياقهم. بالنظر إلى أن البلاد كانت مقسمة إقليمياً منذ فترة طويلة إلى مجتمعات وفق منطق محلي محدد، فإن مسارات شباب نينوى لا تتصل بالضرورة بمسارات شباب البصرة. تعمل الآثار التي خلفتها التجربة الوحشية لـ«داعش» في الموصل، وهيمنة الميليشيات الشيعية في مناطقهم ذات الأغلبية السنية، والخوف من الارتباط بـ«داعش»؛ على تقييد استراتيجيات عمل الشباب في محافظة نينوى، على عكس نطاق أشكال المشاركة والإيمان بالعمل الجماعي لأقرانهم في البصرة والجنوب، حيث يعتبر عنف الميليشيات وفشل الدولة من الأسباب الرئيسية لانخراط الشباب مع أو ضد الحركة الاحتجاجية. وبينما يكافح شباب البصرة من داخل الحركة الاحتجاجية للمساهمة في بناء دولة ذات سيادة قادرة على تقديم خدمات نوعية لهؤلاء المواطنين -دولة محررة من الهيمنة الإيرانية وتحترم كرامة العراقيين- يقاوم الشباب في الموصل من أجل البقاء على قيد الحياة ضد عودة ظهور تنظيم الدولة الإسلامية، وضد دولة عراقية تستعدهم وتتخلى عنهم، وضد تنظيمات الميليشيات التي تعتبرهم خونة. وعلى نطاق أوسع، فإن العوامل التي تدفع الشباب في البصرة إلى اتخاذ القرار هي السرديات والطموحات الكبرى (بناء دولة مستقلة، والسيادة الوطنية، وإرساء الديمقراطية، وما إلى ذلك)؛ أما بالنسبة لشباب الموصل، فإن صنع القرار مدفوع في الغالب بالطموحات الصغيرة (العثور على وظيفة، وممارسة الهوايات، وما إلى ذلك).

للخروج من السياق الانقسامي وبناء «قومية عراقية شاملة» يمكن من خلالها تحقيق استيعاب الشباب؛ يجب على الجهات الفاعلة في السلطة وضع مشروع سياسي جديد لتجديد الدولة القومية. لكن نظراً للتهديدات الوجودية التي تواجهها الدولة -جنباً إلى جنب مع تجاهل العام للشباب- فمن غير المرجح أن يظهر مثل هذا المشروع السياسي، أو أن توضع مسارات للاستيعاب السياسي والاقتصادي والاجتماعي للشباب. وسيستمر هذا بدوره في تأجيل عدم ثقة الشباب العراقي العميقة في مؤسسات الدولة، وإيمانهم المشترك إلى حد كبير بأن الدولة العراقية قد فشلت.

1 Harith Al Dabbagh, «De-Baathification in Iraq: transitional justice or simple revenge?» *Quebec Journal of International Law*, volume 27-1, 2014, pp. 31-60; https://www.persee.fr/doc/rqdi_0828-9999_2014_num_27_1_1359.

مقدمة

تصورهم للمجتمع المسالم وكيفية التعايش في دولة رخاء وهدوء؟

من أجل معالجة هذه الأسئلة وفهم مسارات الشباب العراقي في سياقات مختلفة من الصراع، أجرت «مبادرة الإصلاح العربي» -بالشراكة مع «معهد أبحاث ودراسات الشرق الأوسط المتوسطي» (iReMMO)- أبحاثاً في الفترة من 2020-2021 في محافظتين عراقيتين رئيسيتين: الموصل والبصرة. نُظمت 75 مقابلة مباشرة مع شباب عراقي تتراوح أعمارهم بين 18 و26 عاماً بملفات تعريف وهويات اجتماعية وخلفيات اجتماعية واقتصادية مختلفة، من أجل تقييم كيف تؤدي المواقع الاجتماعية والجغرافية والاقتصادية المختلفة إلى صور مختلفة من الدخول في مرحلة البلوغ، وتصورات متباينة عن الاستيعاب والاندماج وفرصه. بالتوازي مع أكثر من 225 ساعة من المحادثات التي جُمعت، أُجري بحث حول الجهات الحكومية وغير الحكومية التي تتدخل بطرق مختلفة، وتقدم أطراً للسياسات وبرامج موجهة نحو استيعاب الشباب في الدولة، وذلك في الفترة بين 1 تموز/يوليو 2020 و30 حزيران/يونيو 2021. وانتهى جمع الأدلة هذا بمناقشة مائدة مستديرة ليوم كامل في تشرين الأول/أكتوبر 2021، مع نشطاء شباب عراقيين من جميع أنحاء البلاد.

تسلط روايات الشباب في محافظتي نينوى والبصرة الضوء بوضوح على تنوع مسارات الشباب حسب سياقهم. وبالنظر إلى أن البلاد كانت مقسمة إقليمياً منذ فترة طويلة إلى مجتمعات بمنطق محلي محدد، فإن مسارات شباب نينوى لا تتصل بالضرورة بمسارات شباب البصرة. فبينما يهتم شباب البصرة بقضايا الإدماج والتغيير على المستوى الكلي (بناء دولة ذات سيادة قادرة على تقديم خدمات عالية الجودة لهؤلاء المواطنين)، يركز شباب الموصل بدلاً من ذلك على قضايا الإدماج على المستوى الجزئي، وعلى وجه الخصوص؛ إيجاد مسارات خاصة بتنميتهم الشخصية، والتكامل الاجتماعي والاقتصادي. وبالمثل، فإن الآثار التي خلفتها التجربة الوحشية لـ«داعش» في الموصل، وهيمنة الميليشيات الشيعية في مناطقهم ذات الأغلبية السنية، والخوف من الارتباط بـ«داعش»؛ عملت على تقييد استراتيجيات عمل الشباب في محافظة نينوى، على عكس مجموعة من أشكال المشاركة والإيمان بالعمل الجماعي لأقرانهم في البصرة والجنوب، حيث يعتبر عنف الميليشيات وفشل الدولة من الأسباب الرئيسية لانخراط الشباب أو ضد الحركة الاحتجاجية.

بالنظر إلى ذلك، يُظهر البحث أن بناء «قومية عراقية شاملة» يمكن من خلالها استيعاب الشباب، وتأسيس رؤية جمعية وقضية يمكن الالتفاف حولها؛ أمر صعب، بالنظر إلى حالة الانقسام الاجتماعي والثقافي وحتى الإقليمي بين الشباب. لا يكفي تسليط الضوء على وجود اهتمامات مشتركة بين الشباب -مثل محاربة الفساد، ورفض الميليشيات، أو المطالبات بتوفير الخدمات العامة، في الواقع، حتى وجود قيم متشابهة -مثل أهمية الدين في الحياة الاجتماعية- ليس كافياً بالضرورة. إن «الهوية العراقية»، كمشروع سياسي للأمة العراقية، لا يمكن أن تتحقق إلا على أساس التفاعل بين المواطنين. يتطلب الانتقال من الهوية الطائفية إلى الهوية الوطنية -أي من الطائفية إلى القومية المنفتحة والجامعة- خروجاً سلساً من حالة الانقسام والوحشية التي اتسمت بها التجارب المعيشية لشباب البلاد.

هل يوجد شباب عراقي؟ هل يمكن بناء صورة عالمية للشباب العراقي؟ هذه الأسئلة يصعب الإجابة عليها. على غرار المجتمع العراقي والأمة العراقية والدولة العراقية، من الصعب للغاية التقاط هوية الشباب العراقي، المنقسم على المستويات الإقليمية والطائفية والعرقية والسياسية. إن الحديث عن «شباب عراقي» واحد ينبع فقط إما من التركيبة الأيدولوجية أو التفكير بالتمني، لأن الشباب السنة في الموصل لا يشبهون الشباب الشيعة في البصرة، وهؤلاء بدورهم بالكاد يتشاركون في أي شيء مع الشباب الأكراد في السليمانية. ومن هنا فلا يمكن الحديث عن هذا الشباب إلا بصيغة الجمع.

باعتبارهم قضية أساسية لمستقبل البلاد وتحدياً استراتيجياً كبيراً للدولة الهشة؛ يمكن للشباب العراقي بلا شك أن يثبت أنه عامل محدد لهوية العراق وما يمكن أن يكون عليه مجتمعاً ودولة. وبحسب وزير التخطيط العراقي، فإن الشباب العراقي يمثل 68% من السكان،² وهم مستبعدون في الغالب. وبخلاف النخب السياسية التي تنصدر التسلسل الهرمي الاجتماعي، فهم مستأثرون مما يصفونه بالظروف الاجتماعية والاقتصادية «غير الملائمة»، و متمسكون بشدة بالحركة الاحتجاجية. ثمة مجموعة كبيرة من هذا الشباب تريد معارضة هذا الجيل من «الديناصورات»،³ أي المعارضة السابقة لنظام صدام حسين التي قبضت على زمام السلطة عام 2003 بفضل الاحتلال الأميركي للعراق.

بدلاً من الاستماع إلى تطلعات الشباب وفهمها والاستجابة لها، فإن هؤلاء «الديناصورات» يفضلون إصدار أحكام قيمة، ووصفهم أحياناً بأنهم «جيل خطير»، أو «عملاء للسفارات» في أوقات أخرى. لذلك، تُعطى الأولوية دائماً للأساليب الأمنية القمعية على الحوار والوسطية والاستيعاب. وبالفعل، فلنكي تتعامل الدولة العراقية مع الحركة الاحتجاجية التي يهيمن عليها الشباب -التي انطلقت في 1 تشرين الأول/أكتوبر 2019- اعتمدت على هذا المنظور. وفي غضون ثلاثة أشهر -بين 1 تشرين الأول/أكتوبر 2019 و31 كانون الأول/ديسمبر 2019- سجلت 669 ضحية و24488 جريحاً و2806 معتقلاً⁴ وسط الاغتيالات وعمليات الاختطاف واحتجاز الرهائن والسجن والتعذيب والتهديد للفرد والأسرة؛ تجد الحركة الشبابية نفسها ضعيفة وعزلاء أمام سلطة تقتل دون رادع وبكل الوسائل المتاحة لها.⁵

من هؤلاء الشباب؟ كيف يعرفون أنفسهم؟ كيف يحددون توقعاتهم؟ كيف يرون المستقبل؟ وبالنسبة لأولئك الذين يعانون من الصراع الاجتماعي لحركة تشرين الأول/أكتوبر 2019، فما الذي يدفع مشاركتهم في الحركة الاحتجاجية؟ وبالمثل، بالنسبة لأولئك الذين عانوا من العنف في سياق صراع «داعش»، كيف تؤثر أعمال العنف التي تمارسها الدولة والميليشيات على المستويات القبلية والطائفية والعرقية والإرهابية على الشباب؟ كيف ينوون بناء هيكلهم السياسي والاجتماعي في المستقبل داخل المجتمع العراقي؟ كيف يطورون استراتيجيات العمل للتغلب على العقبات التي تعترض دعواتهم ومشاريعهم وأحلامهم؟ وما هو -بالنظر إلى سياقات الاضطرابات المتنوعة الموجودة في العراق اليوم-

2 تصريح خالد بقال نجم، وزير التخطيط، بتاريخ 14 حزيران/يونيو 2021.

<https://www.nasnews.com/kurd/view.php?cat=28963>

3 مصطلح متكرر خلال المقابلات في الموصل والبصرة.

4 المركز العراقي لتوثيق جرائم الحرب، 13 كانون الثاني/يناير 2020 - <https://iwdc-iraq.org>

5 «Iraq: a campaign of terror», *Amnesty International*, 19 December 2019. <https://www.amnesty.fr/liberte-d-expression/actualites/irak-campagne-de-terreur>.

المسارات والاستراتيجيات: كيف يستطيع الشباب بناء حياتهم في سياقات النزاع/ ما بعد النزاع؟

انضموا إليها من قبل شنت حملة قمع واسعة النطاق ضدهم، وقتلت 600 وأصابت 23 ألف من الشباب الأعزل الذين لا حول لهم ولا قوة. ما يمكن استخلاصه من القصص الشخصية لهؤلاء الشباب هو أن الظروف المجتمعية الخاصة بكل منطقة تستلزم مسارات مختلفة للشباب، ومن ثم استحالة الحديث عن الشباب العراقي كتلة واحدة. وعلى نحو مماثل، فإن المسارات المتعددة تعكس العوامل المتعددة التي تدفع الشباب إلى اتخاذ القرارات.

في حين يكافح شباب البصرة ضمن الحركة الاحتجاجية للمساهمة في بناء دولة ذات سيادة قادرة على تقديم خدمات جيدة لهؤلاء المواطنين، دولة متحررة من الهيمنة الإيرانية وتحترم كرامة العراقيين، يكافح الشباب في الموصل من أجل البقاء ضد ظهور تنظيم الدولة الإسلامية من جديد، وضد الدولة العراقية التي تسعى إلى إقصائهم، والمنظمات المسلحة التي تعتبرهم خونة. وعلى نطاق أوسع، تعتمد العوامل التي تدفع الشباب في البصرة إلى اتخاذ القرارات اعتماداً على السرديات والطموحات الكبرى (بناء الدولة المستقلة، والسيادة الوطنية، وإرساء الديمقراطية، وغيرها)؛ بينما عملية صنع القرار بالنسبة لشباب الموصل تقوم على السرد الشخصي والطموحات الصغيرة في الغالب (إيجاد وظيفة، وممارسة الهوايات، وغيرها).

وعلى نحو مماثل، وفي إطار هذه السياقات المختلفة، يتناول كل نوع من الأطراف المعنية الفرص المتاحة أمامه والقيود التي تعيقه بطريقة مختلفة. ففي الموصل، التي تشهد بيئة من قمع الميليشيات وإرهاب «داعش»، يعطي الشباب الأولوية للقيود الأمنية والبقاء على قيد الحياة. أما بالنسبة لكردستان العراق، يبدو أن الوضع مختلف، نظراً إلى أنها بعيدة عن «داعش» والميليشيات. فالبحث عن وظيفة هو الشاغل الرئيسي للشباب هناك. وفي المقابل، فإن الشباب في البصرة مدفوعون في الأساس بالحاجة إلى البقاء على قيد الحياة، ولا سيما أولئك الذين يشاركون في الحركة الاحتجاجية. إذ يرغب البعض فقط في البقاء على قيد الحياة لمواصلة النضال الاجتماعي السياسي، والبعض الآخر يركز على النضال الثوري. وفي ظل معدل البطالة المرتفع للغاية بين الشباب (70% في الناصرية)، فإن الفرص والاتفاق المتاحة أمامهم قليلة إلى حد كبير. وإذا ما أتاحت أمامهم بعض الفرص، يتعين عليهم تخطي العديد من العقبات التي تتمثل في: الأحزاب السياسية، والمنظمات المسلحة، ومؤسسات الدولة التي يسيطر عليها الكيانان المذكوران آنفاً.

ومع ذلك، ففي الوقت نفسه، أعرب الأشخاص الذين أجريت معهم المقابلات في نينوى والبصرة، وكذلك المشاركون في الحلقات النقاشية عن عدم ثقتهم تماماً في البرامج الحكومية الموجهة. إذ إنهم يعتقدون أن هذه البرامج لها أجنداث محددة، وتتقيد بأيدولوجيات معينة، ولا تستهدف إلا فئة من الشباب «المُروض» المنتمي إلى أحزاب سياسية في السلطة. وينبع انعدام الثقة هذا من الانقسام الذي يتعمق منذ سنوات بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا في المجتمع العراقي. ورغم أن عدم الثقة قد يبدو أقل بالنسبة للمنظمات غير الحكومية الدولية (نظراً إلى أن الجهات الفاعلة في المجتمع المدني قادرة على توسيع نطاق عملها لتشمل فئات مختلفة من الشباب)، فإن فرص الإدماج المتاحة غير كافية على النحو الذي يقدمه قطاع المجتمع المدني لمواكبة الطلب الهائل على سبل كسب الرزق وتوفير فرص العمل للشباب العراقي اليوم.

في السياق العراقي، يبدو أن مفهوم فترة «ما بعد النزاع» هو مفهوم دقيق ومتعدد المستويات. ومع أنه من الواضح أن الحرب الإقليمية ضد تنظيم «داعش» قد انتهت نسبياً منذ نهاية عام 2017، إلا أن النزاع يعود إلى الظهور بانتظام ولا يزال هناك جهات فاعلة تمارس العنف. وعلى نحو مماثل، كانت حركة الاحتجاجات الشعبية التي اندلعت في تشرين الأول/أكتوبر 2019 نذيراً بظهور نوع جديد من الصراع الاجتماعي يشهد موجات من التعبئة والانقسام في ظل سياق أوسع من القمع والاضطرابات. ومن هذا المنطلق، دخل العراقيون مرحلة جديدة في تاريخهم، اتسمت بمختلف أشكال انعدام الأمن (المادي والاقتصادي والصحي)، فضلاً عن المطالب الجديدة الموجهة إلى الدولة. وتركز البحوث التي أجريت هنا على مسارات الشباب العراقيين في هذه المرحلة الجديدة، ولا سيما العوامل التي تؤثر على قراراتهم، وكيف يرون الفرص والقيود، وكيف ينظرون إلى مستقبلهم، وكيف يقيمون برامج الحكومة/المنظمات غير الحكومية التي تستهدف هؤلاء الشباب.

قبل اندلاع الحرب على «خلافة» تنظيم «داعش» عام 2014، عانى الشباب في نينوى من الناحيتين الهيكلية والمنهجية نتيجة تطبيق حكومة بغداد المركزية ذات الأغلبية الشيعية لمرسوم «اجتثاث البعث»⁶. فقد شعر الشباب السُنّة بأنهم مستهدفون. ووُصفوا بأنهم أبناء البعثيين الذين اضطروا إلى دفع ثمن «جرائم» لم يرتكبوها. وعلى هذا النحو، يمكن تفسير الشعور بالإقصاء من الوصول إلى موارد الدولة -الخدمات المدنية، والمؤسسات العسكرية، والتعليم، والمجالات الثقافية، والمناصب المناسبة في النظام الاقتصادي، وغيرها. وقد عانى شباب نينوى طوال هذه الفترة من هذه الوصمة، وهذا التنميط الذي أدى إلى استبعادهم.

بيد أنه بعد هزيمة «داعش» الإقليمية عام 2017، انبثق نوع جديد من المسارات أمام شباب هذه المنطقة، ينطوي على الربط شبه التلقائي بين الشباب في نينوى وإرهاب «داعش». والواقع أن المقابلات توضح تصور الشباب بأن مثل هذا السرد ينتشر باطراد، لا سيما في المناطق السُنّية في مرحلة ما بعد «داعش». فقد دفع انتشار الميليشيات الشيعية هؤلاء الشباب إلى نهج مسارات تُمكنهم من الاعتراف بهم على أنهم منفصلون عن «داعش». ولكن من المؤسف أنه حتى هذه الاستراتيجية لم تحميهم تماماً من القمع الذي تمارسه الميليشيات الشيعية.

أما في البصرة، يشارك الشباب في أنواع أخرى من الأعمال. فقد انضموا في البداية إلى المنظمات المسلحة بشكل جماعي وواسع بين عامي 2014 و2018. وخلال هذه الفترة، كان يُنظر إلى الميليشيات على أنها «مُنقذة من وطن 'داعش' الهجري». وعلى هذا النحو، أُعتبر الانضمام إلى صفوفهم عملاً وطنياً. وبعد هزيمة «داعش» وانتهاء الحرب، عاد الشباب بالآلاف إلى مدنهم وقراهم. ونظراً إلى أنهم كانوا جميعاً عاطلين عن العمل، لم يكن لديهم آفاق اقتصادية أو تعليمية. وقد اضطروا هؤلاء الشباب الذين يشعرون أن الحكومة العراقية تخلت عنهم إلى المشاركة في حركات احتجاجية مختلفة. ومن المفارقات أن الميليشيات التي

6 Harith Al Dabbagh, «De-Baathification in Iraq: transitional justice or simple revenge?» Quebec Journal of International Law, volume 27-1, 2014, pp. 31-60 ; https://www.persee.fr/doc/rqdi_0828-9999_2014_num_27_1_1359.

شباب الدولة الفاشلة: تنمية مجتمع في ظل انعدام الثقة

دولار¹⁰ وعلى الرغم من العجز الشديد، فإن حالة النقل العام والطرق والمدارس والجامعات والإسكان وحتى النظام الصحي، تُظهر بوضوح خضوع البلاد تماماً تحت وطأة أوجه الضعف التي ابتليت بها.

بالإضافة إلى أوجه القصور هذه في تقديم الخدمات، أثبتت الدولة العراقية أيضاً أنها غير قادرة على حماية مواطنيها من «داعش». ففي عام 2014، وفي غضون ساعات قليلة، تمكن تنظيم «داعش» من الاستيلاء على مدن رئيسية مثل الموصل وتكريت دون مقاومة تذكر من الجيش العراقي. وبرغم أن رئيس الوزراء العراقي السابق حيدر العبادي أعلن أثناء زيارة قام بها إلى باريس في كانون الأول/ديسمبر 2017 القضاء على تنظيم الدولة الإسلامية، فقد عاود التنظيم الظهور بقوة هائلة بحلول كانون الأول/ديسمبر 2021. فضلاً عن أن الهجمات ضد القوات العراقية (الجيش، وقوات الحشد الشعبي، وقوات البيشمركة، والشرطة، وغيرها)، واحتجاز الرهائن، وعمليات الاختطاف، والهجمات الانتحارية أخذت في الازدياد. ويعتقد التحالف الدولي ضد «داعش» أنه لا يزال هناك تهديد حقيقي، كما يتجلى من الزيارات العديدة لوزراء الدفاع من الاتحاد الأوروبي والمنطقة إلى بغداد وأربيل.

على ضوء هذه الخلفية، يُشكل الشباب العراقي «مجتمعاً من انعدام الثقة» بكل ما تعنيه الكلمة. فقد تقوّضت ثقتهم بجميع المؤسسات العراقية، بغض النظر عن مواقعهم الجغرافية (سواء في الجنوب أم الوسط أم الشمال) أو خلفيتهم العرقية والطائفية (سواء شيعية أم سنية أم كردية). فالمشاعر العابرة للطائفية تنتشر الآن في جميع أنحاء البلاد.

فقد قالت زهراء -وهي خريجة جامعية من البصرة، تبلغ من العمر 26 عاماً- إنها فقدت تماماً ثقتها في الدولة التي «لا تستطيع إيقاف المجرمين الذين يقتلون نشطاء المجتمع المدني، لأن هؤلاء المجرمين أنفسهم جزء من هذه السلطة»، مضيفة أنه «طالما لم يتم تنظيف الدولة من هؤلاء الناس، فلا يمكن أن نأمل في مستقبل أفضل». وقد حاولت تسليط الضوء على انهيار مؤسسات الدولة، بدءاً بالمؤسسة القضائية، قائلة: «في بلادي لا يُطبّق القانون إلا على الضعيف، أما القوي فهو فوق القانون. نحن نعيش في غابة. القانون الذي يُطبّق هو قانون الغابة؛ والقوي يأكل الضعيف». ويؤكد عمر -وهو سني من الموصل، حاصل على شهادة الثانوية، ويبلغ من العمر 25 عاماً- هذا الرأي، قائلاً: «منذ العام 2003 إلى يومنا هذا وجميع الحكومات العراقية تسوقنا إلى الفشل والدمار؛ فليسوا في تلك المناصب من أجلنا، وإنما من أجل أنفسهم». أما حيدر -وهو مقيم في البصرة يبلغ من العمر 24 عاماً، ليست لديه أي شهادة ومنخرط في «سرايا السلام»، وهي ميليشيا تابعة لمقتدى الصدر- فأكثر راديكالية، إذ يقول: «أي دولة تحدثون عنها؟ ليست هناك دولة. حتى حكومة الكاظمي ليست إلا دمية. وكلنا نعرف من يدير البلاد. الكاظمي نفسه دمية».

وقد فشلت النخبة الجديدة في الدولة، التي تولت السلطة بعد سقوط صدام حسين، في إعادة بناء المؤسسات الوظيفية لخدمة المواطنين. وبالنسبة إلى سردار -وهو شاب يزيد من الموصل، يبلغ من العمر 24 عاماً، ليست لديه أي شهادة- فإن الأسوأ من كل ذلك هو أن المرحلة الجارية بعد الحرب هي «حقبه من الخيانات والأكاذيب والنفاق»، يغذيها السياسيون في السلطة، الذين «لا يجب أبداً، على الإطلاق، أن نصدقهم». ويردّد عبد الله، وهو طالب جامعي من الموصل، سني أعزب يبلغ من العمر 25 عاماً، أصدقاء زميله اليزيدي، قائلاً: «ليست لدي أي ثقة في الحكومة، فجميع حكوماتنا لم تُقدِّم البلاد سوى إلى الانهيار». أما سلوى، المحاسبة الموصلية المسيحية العزباء التي تبلغ من العمر 23 عاماً، فتعتبر أن السياسة ملعونة، بكل بساطة، «لأنها تُصيبني بالرعب؛ وهي من عمل الشيطان!»

في 1 أيار/مايو 2003، أعلن الرئيس الأميركي جورج بوش انتصار الحلفاء على حكم صدام حسين في العراق. وبعد الحرب مباشرة دخل العراق في تشكيل سياسي جديد. وكان لزاماً على النخب الجديدة في بغداد أن تتصدى للتحديات الرئيسية التي تتمثل في: إعادة بناء الدولة ونظام حكمها الذي دمره الاحتلال؛ وإرساء الأمن والاستقرار في البلاد؛ والتوزيع الفعال للسلع والخدمات العامة الأساسية.⁷ إذ لا يمكن النجاح في الانتقال بين العراق في ظل حكم صدام حسين والعراق في ظل الاحتلال الأميركي إلا من خلال التفاعل المستمر بين هذه الضروقات الثلاث؛ بيد أن سجل الدولة العراقية بين عامي 2003 و2021 بشأن هذه المسائل مُرَوِّع حقاً.

فقد ابتليت الدولة العراقية بأوجه الضعف منذ أول حكومة في عهد إياد علاوي (2004-2005) إلى آخر حكومة في عهد مصطفى الكاظمي (2020). إذ إنها غير قادرة على توفير الحد الأدنى من الأمن للمواطنين. فقد نشر مشروع «ضحايا حرب العراق»، وهي مجموعة من الباحثين والمحليلين في المملكة المتحدة، إحصائيات مرعبة للغاية. فبين عامي 2003 و2020، وقعت خسائر بشرية بين المدنيين وصلت إلى 208,486 شخص (في المقابل، أسفر العام الأول من الاحتلال الأميركي عن مقتل 12,133). وفي ظل حكومة إياد علاوي (2004-2005)، ارتفع عدد الضحايا المدنيين إلى 28,319. وأثناء حكومة نوري المالكي (-2006 2014)، وصل انعدام الأمن إلى مستويات قياسية غير مسبوقة حيث بلغ مجموع الضحايا 114,263. فقد باتت البلاد في حالة فشل تام. وأصبح الموت حقيقة «طبيعية» للحياة من المنظور الدوركامي. وعلاوة على ذلك، لم يؤثر وصول المعتدلين إلى السلطة مع مصطفى الكاظمي على الوضع.

تفتقر الدولة العراقية أيضاً إلى استراتيجية واضحة لإدارة الخدمات العامة، مما أدى إلى تعميق الفجوة بين توقعات الشباب ومدى جودة الخدمات المقدمة كميّاً ونوعياً. ففي المناطق الكبيرة مثل البصرة، حيث ترتفع درجات الحرارة إلى أكثر من 50 درجة مئوية في أشهر الصيف، لا توفر الدولة العراقية سوى ساعات قليلة من الكهرباء يومياً، وبشكل غير منتظم. وينعكس هذا الوضع العام الذي يتسم بعدم الكفاءة أيضاً في عجز بغداد عن تلبية الاحتياجات من مياه الشرب، مما يجعلها «واحدة من المحافظات الأكثر تضرراً بالأمراض المنقولة عن طريق المياه».⁸ وفي هذا السياق، استثمر البنك الدولي، في أوائل عام 2018، 210 مليون دولار لتمويل مشروع لتحسين إمدادات المياه والصرف الصحي. ووفقاً لمنظمة «اليونيسيف»، يعيش 25% من العراقيين على أقل من 2.00 دولار أميركي في اليوم.⁹ وبحسب صندوق النقد الدولي، تجاوزت ديون العراق الخط الأحمر: فقد وصلت بحلول نهاية عام 2020 إلى 120 مليار

7 Derick W. Brinkerhoff et Ronald W. Johnson, "The Decentralization of Local Governance in Fragile States: Lessons Learned from the Iraq Case Study", International review of administrative sciences, vol. 75, n° 4, 2009, pp. 643-668.

8 "مشروع تحسين إمدادات المياه والصرف الصحي في بغداد"، بتمويل من البنك الدولي، يُمكن مراجعة البيان الصحفي على الموقع الرسمي للبنك الدولي (تم الاطلاع عليه في 9 شباط/فبراير 2018). <http://projects.worldbank.org/> P162094?lang=ar

9 يُمكن مراجعة البيان الصحفي على موقع وكالة «بغداد اليوم» الإخبارية، (تم الاطلاع عليه في 11 شباط/فبراير 2018). <https://baghdadtoday.news/ar/> news/34605/ممثل_اليونيسيف_ف.

10 عدنان كريمة، «ديون العراق تجاوزت «الخط الأحمر»»، الحياة، عدد 23 تشرين الثاني/نوفمبر 2018.

وميليشيات المرجعيات، والميليشيات القومية.¹³

عند تحليل المقابلات، يمكننا تحديد علاقة دينامية بين هذه الميليشيات وبين الشباب بوصفهم فئة اجتماعية سائدة في المجتمع العراقي. فمنذ تأسيس قوات الحشد الشعبي، دعت الشباب مباشرة إلى الاحتشاد والتنظيم والتضحية بأنفسهم من أجل «إنقاذ الوطن» من «تنظيم داعش» الهامجي. وقد لَبَّى الشباب -لا سيما الشيعة منهم- بشكل إيجابي وانضموا بالآلاف إلى قوات الحشد الشعبي، مدفوعين بفتوى السيستاني ونداء الوطنية. وبين عامي 2014 و2018، على مدى أربع سنواتٍ طوال، قاتل [هؤلاء الشباب]، دون أي خبرة سابقة، ضد جهاديين محتكين. وكانت الأسر في الجنوب تتلقى يومياً جثامين أبنائهم الذين سقطوا خلال المعارك. ومع أسفهم وحزنهم، كانوا فخورين بتضحياتهم، ودفنوا شهداءهم. فعلى هذا النحو تبدت عقيدة «الشهادة» في صورتها الاجتماعية خلال هذه الفترة، وأصبحت مبدأ حاسماً في ممارسات الشباب. ومع ذلك، فقد أدى انتهاء الحرب ضد «داعش» وعودة ظهور هذه التنظيمات في الحياة اليومية، فضلاً عن إعادة انتشارها في الفضاءات الاجتماعية، إلى حدوث تحولات في خطابها وممارساتها وتجسدها، بل أيضاً في شبه التوافق بشأنها الذي كان موجوداً في العام 2014.

في هذا السياق، هناك دوافع مختلفة تؤكد التزام الشباب بالانضمام إلى قوات الحشد الشعبي. فبعضهم يقوم التزامه على أسباب أيديولوجية؛ فقد لاقت إعادة دمجهم في معسكرات التدريب التابعة للحشد نجاحاً، حتى بعد الحرب. وهذا هو الحال بالنسبة إلى كنعان، الشيعي البصري الذي يبلغ من العمر 24 عاماً، وهو متزوج، ولم يحصل على شهادة الثانوية. فهو يعتقد أن «الحشد الشعبي مقدس. فأعضاؤه، لا سيما أعضاء سرايا السلام» (وهي ميليشيا تابعة لمقتدى الصدر)، هم رجالٌ صدق ونزاهة، وسيضحون بأنفسهم من أجل بلدهم». لكن بالنسبة إلى آخرين، فالعضوية شيءٌ بديهي؛ لأن الشباب، في ظل دولة فاشلة، يبحثون عن بدائل لحماية أنفسهم. بالنسبة إلى حسين -وهو خريج جامعي شيعي من البصرة عاطل يبلغ من العمر 23 عاماً، ومتزوج ولم يُنجب بعد- فقوات الحشد الشعبي هي البديل الوحيد؛ إذ يقول: «الشباب يحملون السلاح لأن الدولة لا يمكنها حمايتهم ولا حماية أسرهم أو بلادهم. فالشباب يحملون السلاح للقيام بهذا الدور».

إن هذا التصور -دولة ضعيفة و«حشد شعبي» قوي- هو في الواقع أمر أساسي في أوساط كثير من الشباب، وخاصة في الجنوب، لأنه يعطي لخياراتهم معنى. وقد دفع هذا حسن، وهو موظف مدني متزوج ويبلغ من العمر 25 عاماً، إلى إخبارنا: «أنا أؤيد قوات الحشد الشعبي. فقد أنقذت وطننا، ومقاتلوها يحمون الدولة وأهلها. وقد ذهبنا إلى خط المواجهة وشاركنا في الحرب، ولكن لم أرى الجيش هناك. كنا وحدنا في المقدمة، ولا أستطيع أن أنسى ذلك أبداً».

ومع ذلك، ومنذ العام 2018 مع انتهاء الحرب ضد «داعش» وعودة هذه التنظيمات من الجبهة، هناك تغيير في تصورها وهويتها وتمثيلها في أوساط الشباب. فلم تعد الميليشيات المدججة بالسلاح في حالة حرب؛ وقد انتشرت في المدن محاولة فرض رؤيتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية للمجتمع، التي قبلها قطاع من المجتمع ودعّمها بوضوح. ومع ذلك، هناك جزء كبير جداً ونشط من الشباب رفض رفضاً قاطعاً هذه الرؤية، وكانوا على استعداد للدخول في مواجهة عنيفة ضد هذه الميليشيات.

13 لمزيد من التفاصيل حول فئات [الميليشيات]، انظر:

Adel Bakawan, «Shiites in Power in Iraq: The Failure of the First Experience», CAREP, 24 August 2020. <https://www.carep-paris.org/publications/axes-de-recherche/es-chiites-au-pouvoir-en-irak-lechec-de-la-premiere-experience>

في الواقع، ليست هذه حالات منفردة، بل خطاب تبنّاه وتشربّه واعتنقه شبابٌ كانت لديهم يوماً ما رؤية أخرى للسياسة؛ مثل سَكينة، وهي طالبة كاكانية¹¹ من الموصل في مرحلة الدراسات العليا، إذ تقول: «كنت أعتقد أن بإمكاننا أن نُحدث تغييراً من خلال العمل السياسي؛ ولكنني اليوم تساورني شكوك عميقة تجاه نخبتنا السياسية. لقد فقدت ثقتي وإيماني بالسياسة. وعلى أي حال، لقد خسرننا كل شيء... لقد سرقوا منا كل شيء، حتى أحلامنا».¹²

الشباب في مجتمع الميليشيات:

انقسامات هيكلية وتصورات متعارضة

وقد أَدَّى المرسوم رقم 1 بتاريخ 12 أيار/مايو 2003 الخاص بـ«اجتثاث البعث» من المجتمع العراقي، إضافة إلى المرسوم رقم 2 الذي قضى بحل الجيش العراقي، الذي أصدرته «سلطة الائتلاف المؤقتة» بقيادة بول بريمر بتاريخ 23 أيار/مايو 2003، إلى تجريد العراق من جميع مؤسساته التي كانت تمثل تقاليد دولة امتدت على مدى قرن من الزمن تقريباً. ووفقاً لشهادة بول بريمر الشخصية، فقد استخدم هذا «التطهير» للمجتمع العراقي، هذا الفراغ، لإرساء الأسس الأولى لعملية إعادة تشكيل الدولة العراقية. وقد تم إصلاح الجيش ووزارتي الدفاع والداخلية، وجميع أجهزة الأمن والدفاع التابعة لهاتين الوزارتين، في الغالب من خلال دمج ميليشيات كانت في السابق معارضة لنظام صدام حسين. ونتيجة لذلك، وبناء على إصرار الولايات المتحدة، صارت هذه الميليشيات تمثل العمود الفقري لدولة ما بعد صدام.

وأمام مشهد صعود «داعش» وتنامي المخاوف من استسلام بغداد لجهاديين الخلافة، أصدر آية الله السيستاني فتوى بتاريخ 13 حزيران/يونيو 2014 يطلب فيها من العراقيين تشكيل حشد شعبي للدفاع عن البلاد. كانت تلك لحظة حاسمة بالنسبة إلى الميليشيات التي صارت، بفضل هذه الفتوى، منظمة في هيئة «قوات الحشد الشعبي»، التي تخضع رسمياً لقيادة رئيس الوزراء ولكنها مستقلة، مع استمرار تغلغلها في مؤسسات الدولة. فقد خصّصت الدولة العراقية 2.6 مليار دولار أميركي من ميزانيتها لهذه الميليشيات عام 2021، وهو ما يساوي ميزانية الخمس وزارات التالية مجتمعة؛ وهي الزراعة والصناعة والنقل والموارد المائية والاتصالات. وفي العام ذاته، وصل عدد التنظيمات العسكرية المتضمنة في قوات الحشد الشعبي إلى 67 تنظيمًا، تضم 160 ألف مقاتل يملؤون صفوف الحكومة العراقية ويسدّون النقص فيها. ومع ذلك، فإن النظر إلى هذه الميليشيات على أنها كيان متجانس ذو قيادة موحدة، أو برنامج سياسي متماسك، أو لديها استراتيجيات عمل مُنسقة، هو أمرٌ يتعارض تماماً مع الواقع الذي يتسم بوجود خصومات تُوْجج الاشتباكات العسكرية التي ينتج عنها وفيات وإصابات بين المسلحين الشيعة أنفسهم. على هذا النحو، واستناداً إلى تحليل البيانات الواقعية عن هذه العداوات داخل الميليشيات، فقد تم تحديد ثلاث فئات مميزة من الميليشيات، وهي: الميليشيات الموالية لإيران

11 لا ينظر الكاكانيون لأنفسهم على أنهم مسلمون؛ بل يزعمون أنهم من ديانة تُعرّف في محافظة الموصل باسم «البارسانية» بالكردية أو «أهل الحق» بالعربية. ويقيم الكاكانيون في أراضٍ واسعة، وتقع العديد من قراهم في محافظات كركوك وديالى والموصل.

12 هذا الخطاب الذي يظهر طوال المقابلات يتوافق تماماً مع دراسة مسحية سابقة أجراها المؤلف في تشرين الأول/أكتوبر 2019 مع 350 عراقياً. فتبعاً لتلك الدراسة، قال 89% من المجيبين إنهم لا يتقون في المؤسسات العراقية، وإنه سيكون من الأفضل تكليف مؤسسة دولية بإدارة الدولة، بدلاً من النخب التي تدير البلاد منذ سقوط نظام صدام حسين.

عاطل عن العمل، وليس لدي راتب. لا يمكنني تكوين أسرة. أخبروني: أي شيء أنا؟ لا شيء! لا شيء على الإطلاق. أفضل الموت في الشارع مع رفائي على أن أعيش هذه الحياة...». وتردّت أصداً هذا الكلام في مشاعر ماثلة لدى سليمان -وهو شيعي من البصرة يبلغ من العمر 25 عاماً، ومتزوج لم يُجب بعد- إذ يقول: «ليست لدينا في البصرة القواعد الأساسية لإقامة حياة كريمة. فنحن نُعامل كالحوانات. علينا أن نزل إلى الشوارع».

إنه بالفعل غضب جيل «بلدوزر» لا يجيد اللغة المشفرة للسياسيين، وليس لديهم رؤية واضحة لعملهم. كانت أكثر الشعارات تكراراً هي «إسقاط النظام» (لاعتباره فاسداً) و«نريد دولة» (يعتقدون أنها غير موجودة حتى الآن). فقد أوضح علي -وهو شيعي من البصرة، يبلغ 23 عاماً- ذلك بقوله: «نريد دولة مستقلة عن إيران، دولة تقوم بعملها. نريد فقط وطناً، ووطناً يكون لنا...».

ومع ذلك، ثمة فراغ كامل وراء هذه الشعارات. فليس لدى هؤلاء الشباب سوى فهم ضئيل للأدوات التي يستخدمها ممثلو هذه الطبقة الحاكمة والنخب للدفاع عن إنجازاتهم ومزاياهم. ومع تزايد الدعوات لإسقاط النظام، بدأ المستفيديون منه في استعمال أساليب الحديد والناز وفرضوا قمعاً هائلاً. ونتيجة لذلك، وجد المنطق الثوري -الذي تبناه هذا الجيل الجديد، ربما عن غير وعي- نفسه في مواجهة منطق راديكالي يعتمد الاستخدام غير المقيد للعنف المعمم. وهذا ما يفسر الزيادة المستمرة في عدد الضحايا والجرحى، فضلاً عن عدد الأشخاص الذين اعتقلوا بين 1 تشرين الأول/أكتوبر و31 كانون الأول/ديسمبر من العام 2019.

إضافة لهذا، ليست لدى هذا الجيل رؤية واضحة لما يكمن وراء شعار «نريد دولة»؛ يريدون دولة على أي أسس؟ وبأي نظام؟ وماذا سيكون هيكلها وتكوينها؟ وبأي هوية؟ أهم العرب مقابل الأكراد؟ أم الشيعة مقابل السنة؟ أم المسلمون مقابل المسيحيين؟ أم ستكون هوية جامعة توحد الشيعة والأكراد والسنة وأطياف المجتمع العراقي الأخرى؟ وحتى في هذه الحالة، ما هي العملية التي ستخلق هذه الهوية؟ ومن الذي سيديرها؟ وكيف ستؤدي إلى خلقها؟ ثمة كثير من الأسئلة التي لا يستطيع هذا الجيل «الثوري» -الذي تركته الجمهورية للشبكات الاجتماعية- أن يقدم إجابات عليها، بل إنه لا يرى جدوى من العثور على إجابات لهذه الأسئلة، والتي تعتبر أساسية للشباب الذين يحملون ببناء «بلد» معاً.¹⁶

شباب مفرط العدائية

بعد تحليل المقابلات، يمكن تحديد فئة أخرى من الشباب -وخاصة في جنوب العراق- تختلف عن فئة الشباب المشاركين في الحراك الثوري. وهذه الفئة تعارض بشدة الحركة الاحتجاجية، وتعتبر عن عدا عميق لها. فبدعم من برامج إعادة التوطين الأيديولوجي -التي طورتها الميليشيات والأحزاب السياسية المرتبطة بالسلطة، والتي تكون غالباً، وليس دائماً، موالية لإيران- يعتقد هؤلاء الشباب أن الحركة الاحتجاجية مؤامرة نظمها الولايات المتحدة وإسرائيل لتقييد وهزيمة تجربة الدولة الشيعية الأولى في العراق.

يقرّ محمد -وهو شيعي من البصرة، يبلغ من العمر 25 عاماً، متزوج ويعمل موظفاً حكومياً- بأن الدولة فشلت في تقديم خدمات جيدة، «لكن هذا لا يبرر الثورة؛ بل يجب أن نساعد الحكومة على تحسين الخدمات... لسنا بحاجة إلى مزيد من الموت. فالمتظاهرون يتلاعب بهم الأمريكيون والإسرائيليون الذين يتآمرون ضد بلدنا». يعد كلام محمد معتدلاً مقارنة بكلام صالح -من «سرايا السلام» في البصرة، ويبلغ من

أحمد -وهو خريج شاب شيعي من البصرة، متزوج ويعمل في شركة صغيرة- أحد هؤلاء الشباب الذين عتبروا عن رفضهم لما سمّوه «ارتهاق الدولة للمليشيات». فكما يقول، «يجب أن تكون الدولة هي الكيان الوحيد المسؤول عن أمننا». وترى فاطمة، وهي طالبة جامعية شيعية تعيش في البصرة وتبلغ من العمر 23 عاماً، أن قوات الحشد الشعبي «تهديد [حقيقي] للدولة والمجتمع العراقي»، وأنها «مصدر اليأس والشقاء، لأنها تقتل وتتهب وتغتصب وتدمر البلاد...». وقد وثقت منظمة العفو الدولية في الواقع دلائل تؤكّد ما تقوله فاطمة. فقد وصفت بوضوح ممارسات الميليشيات التي «أعدمت [...] خارج نطاق القضاء، أو قتلت على نحو غير مشروع، وعتبت واختطفّت آلاف الرجال والصبان. وجرى اقتياد الضحايا من بيوتهم أو أماكن عملهم، أو من مخيمات النازحين داخلياً، أو لدى مرورهم بنقاط التفتيش، أو من أماكن عامة أخرى. وعثر على بعضهم لاحقاً قتلى. بينما لا يزال الآلاف منهم في عداد المفقودين، رغم مرور أسابيع وأشهر وسنوات على اختطافهم».¹⁴

تسلط هذه النظرة لمليشيات قوات الحشد الشعبي الضوء على المجتمع المنقسم الذي لم يعد يشترك في اللغة والرموز والمراجع وآفاق المستقبل نفسها. فمن ناحية لدينا شباب يرى في مليشيات قوات الحشد الشعبي شيئاً مقدساً، ومخلصاً وملجأً وحمايةً. ومن ناحية أخرى، لدينا شباب -مثل نادية، وهي شيعية متزوجة تحمل شهادة في القانون وتبلغ من العمر 25 عاماً- يرون في مليشيات قوات الحشد الشعبي هذه مجرد «قتلة ولصوص وقطاع طرق، لا أكثر ولا أقل، ولديهم هدف واحد لا غير: تدمير البلد». وبالتالي، فإن الفجوة بين هذين الفريقين في المجتمع هي فجوة راسخة بنيوية. ولا شك أن هذه الفجوة هي أحد العوامل الرئيسية وراء التزام الشباب بحركة احتجاجية غير مسبوق.

الشباب والحركة الاحتجاجية: طيف من الانخراط والارتياح والعدائية

إن مشاركة الشباب في تأسيس الحركة الاحتجاجية وتطويرها ونشرها،¹⁵ زمانياً ومكانياً، حقيقة ملفّنة للنظر للغاية. ومع ذلك، قد يكون من الخطأ في الملاحظة والتحليل النظر إلى موقف الشباب باعتبارهم كتلة متجانسة ومتحدة في غضبها ومحتشدة بشكل جماعي ضد السلطة القائمة. فهذا التعميم لا ينسجم مع الواقع غير المتجانس الذي يتسم بتعقيدات دقيقة للغاية، كما يظهر من المقابلات. وبالتالي، يمكن استشفاف ثلاثة أنماط على الأقل من المواقف بين الشباب تجاه الحركة الاحتجاجية.

شباب منخرط في الحراك الاحتجاجي من ناحية سوسيولوجية، يمكننا تحديد جزء من الجيل الجديد نشأ وترعرع في ظل وسائل التواصل الاجتماعي، ودون تعليم رسمي في الغالب. فهؤلاء محرومون من الناحية الاجتماعية ويفتقرون إلى الجانب الثقافي، ويمثلون الحلم المنتهك بخاصة أفضل يصعب الوصول إليها وبتكامل اجتماعي وسياسي مفقود، وانعدام الثقة عموماً. وقد أعرب نور الدين، وهو شاب من البصرة، عن هذا الغضب الذي بداخله، مثل معظم أبناء وطنه، قائلاً: «عمري 24 عاماً. لم أستطع الذهاب إلى الجامعة. وأنا

14 <https://www.amnesty.org/fr/documents/mde14/5386/2017/> .fr

15 في مقال نشر في العام 2020، ناقشنا بالتفصيل مكونات وديناميات الحركة الاحتجاجية في العراق، ولن نعود إليها هنا. انظر:

Adel Bakawan, «The protest movement in Iraq: actors, paradigms, perspectives», *Middle East Review*, Middle East editions, n°6, 2020

16 Adel Bakawan, «The Conditions of an Iraqi «dream»», *OLJ*, 19 April 2019.

<https://www.lorientlejour.com/article/1167154/les-conditions-du-reve-irakien.html>

من ربطهم بـ«داعش»، تحدد جزئياً استراتيجيات عمل هؤلاء الشباب، بما يجعلهم مختلفين عن شباب البصرة كما سنرى في القسم التالي.

الشباب وأحلامهم المنقسمة في بلد مليء بالنزاعات

في جنوب العراق، يعتبر عنف الميليشيات وفشل الدولة من الأسباب الرئيسية لانخراط الشباب مع أو ضد الحركة الاحتجاجية. أما في الشمال، فتدفع نفس الظروف الشباب إلى أشكال الفردانية والتفكير الذاتي والانفصال والتركيز على تطوير المشاريع والطموحات الصغيرة، مما يجعل الفرد أولوية قصوى. وبالتالي، فإن تحليل أحلام الشباب وآفاقهم هو نقطة الانطلاق لفهم هذه الفجوة التي تقسم جميع شرائح المجتمع العراقي. وقد حالت هذه الفجوة دون تشارك الشباب لغة الحياة اليومية وأنماطها، والرموز المرجعية، وتصورات الذاكرة الجماعية، وقرآناً ما لتاريخ الدولة الممتد قرناً من الزمان، وخطط المستقبل.

للخروج من السياق الانقسامي وبناء «هوية عراقية جامعة» -وهي ما يعتبر في الوقت الحالي نموذجاً يصعب الوصول إليه- لا يكفي التأكيد على وجود اهتمامات مشتركة بين الشباب، من قبيل مكافحة الفساد أو رفض الميليشيات أو المطالبة بتفعيل الخدمات العامة. وبالمثل، فإن إبراز الممارسات الشائعة بين الشباب -مثل استخدام منصات وسائل التواصل الاجتماعي- أمر لا يكفي أيضاً. بل إن امتلاك قيم متمثلة -مثل أهمية الدين في الحياة الاجتماعية- ليس بالضرورة شرطاً مسبقاً لبناء هوية جامعة؛ بل على العكس: بدون مشروع سياسي شامل يصوغه الفاعلون في السلطة، فإن وجود هذه المؤشرات «بدلاً من أن يعمل على إذابة الحدود الفاصلة بين الهويات، كثيراً ما يسهم في تقويتها»¹⁷.

إن الهوية العراقية باعتبارها مشروعاً سياسياً للأمة العراقية، لا يمكن أن تتحقق إلا على أساس التفاعل بين المواطنين. ومع ذلك، تكشف المقابلات أننا في حالة من الانقسام الاجتماعي والثقافي، بل والإقليمي، بين الشباب. لذلك، فإن الانتقال من الهوية الطائفية إلى الهوية الوطنية -أي من الطائفية إلى القومية المنفتحة والجامعة- يتطلب وجود مخرج «سلس» من حالة «الانقسام»، بدون تلك الوحشية التي اتسم بها تاريخ العراق.

خالد شاب شيعي من البصرة، يبلغ من العمر 25 عاماً، متزوج وله طفل واحد، وحاصل على شهادة جامعية ولديه وظيفة. يحلم خالد بدولة عراقية لا تعامل الشباب باعتبارهم أفراداً من طائفة دينية، بل باعتبارهم مواطنين لهم حقوق في مجتمع حديث. وهكذا فإن السرديات الكبرى في دولة ذات مؤسسات قوية وحديثة وتتمتع بالشفافية أصبحت حلم خالد الذي ينظم حياته حوله. من ناحية أخرى، فإن معركة سَرمَد -وهو شاب سني من الموصل، يبلغ من العمر 25 عاماً، أعزب ولا يزال طالباً- تدور على نطاق أضيق، وطموح صغير؛ فهو يركز على نفسه لإنهاء دراسته، والحصول على شهادة، وأن تكون لديه وظيفة تسمح له بالاستقلال في عالمه الاجتماعي. وانسجماً مع حلمه يرفض سرمد بشدة فكرة الزواج وإنجاب الأطفال في الوقت الحالي.

العمر 24 عاماً -«هؤلاء الشباب المتظاهرون يدمرون بلدنا، يجب أن نوقفهم بكل الوسائل. نعم، هناك مشاكل، لكن الحل لن يأتي على يد الأميركيين أو الإسرائيليين، بل الحل هو إقامة الجمهورية الإسلامية في العراق، تماماً مثل إيران».

إن الفشل في استيعاب هؤلاء الشباب الذين يقاتلون من أجل صبح الدولة بالإسلام الشيعي، والمستعدين للتضحية بأنفسهم من أجل المثل العليا، يحول دون تكوين صورة كاملة للسياق الذي يجد فيه الشباب العراقي ذاتهم. فالتركيز على الشباب المنخرطين في الحركة الاحتجاجية لا يجب -بأي حال من الأحوال- أن يصرف النظر أو التحليل عن أقرانهم المناوئين لهم؛ بل على العكس من ذلك، من الضروري أن تؤخذ بعين الاعتبار هذه الفئة الثانية من الشباب ودورها في إعادة تشكيل مستقبل العراق.

الشباب المنفصل عن الحراك الاحتجاجي

بين هاتين الفئتين المتعاديتين المنخرطتين في دائرة من العنف المتبادل -لأن هناك وفيات من الجانبين- نلاحظ ظهوراً قوياً ومؤثراً لفئة ثالثة من الشباب، تتركز بشكل رئيسي في محافظة نينوى. يسعى هؤلاء الشباب إلى السرديات الصغرى في حياتهم اليومية (العثور على وظيفة، والاهتمام بالهوايات أو الترفيه، والنجاح في دراستهم... وما إلى ذلك) بدلاً من التضحية بأنفسهم من أجل السرديات الكبرى (القومية، والإسلامية، والجهادية، والقبلية، والشيعوية، والحركة الاحتجاجية... إلخ). في الواقع، طور شباب الموصل الذين قابلناهم نوعاً فريداً من الخطاب ضمن سياقهم العراقي الخاص. فقد وُلد شباب الموصل قبيل احتلال الأميركيين للعراق، ووصول النخب الشيعية الطائفية إلى السلطة في بغداد. ولذا، لقد نشؤوا في سياق الإقصاء المنهجي للطائفة السنية، وشهدوا قمع أي مطالبات من كبارهم بالانضمام إلى الدولة والمجتمع العراقي. لقد عانوا منذ سن مبكرة من العواقب الكارثية لهذا العنف الطائفي.

ضمن هذه الخلفية، أسهم استيطان «الخلافة» في أراضيهم بين عامي 2014 و2017، والعنف اليومي الذي مارسه جنود «داعش»، في تشكيل طريقة شباب الموصل في العيش وأحدث فيها تحولات. فقد أعرب عبد الله -وهو أعزب سني من الموصل، يبلغ من العمر 25 عاماً، وحاصل على الشهادة الثانوية- عن دعمه فقط لحركة احتجاجية تتجنب «جميع أشكال العنف، وتظل سلمية وديمقراطية، لأنني ضد العنف».

جاءت الإشارة لهذا الرفض للعنف وانعدام الثقة في العمل الجماعي تقريباً في جميع المقابلات مع الشباب من هذه المحافظة، بغض النظر عن الهوية العرقية والطائفية، حيث يمكن الوقوف على خطاب مماثل في المقابلات التي أجريت مع الشباب المسيحيين والأكراد والكابانيين والزيديين من المحافظة نفسها. ويبدو الأمر وكأن هناك قاسم جبلي مشترك يجمع بين شباب المحافظة، على الرغم من تنوع دياناتهم وطوائفهم وأعراقهم. فقد أبدت سلوى -وهي محاسبة مسيحية عزباء، تبلغ من العمر 23 عاماً- ارتياها العميق في الحركة الاحتجاجية، وصرحت بوضوح أن الحركة «لا تستطيع تغيير الواقع العراقي». بينما ذهبت سَكينة -وهي طالبة كاثوليكية عزباء، تبلغ من العمر 22 عاماً- إلى أبعد من ذلك، واصفة الحركة الاحتجاجية بأنها آلة حرب: «هناك ضحايا وجرحى! ولمواجهة هذا الحراك، هناك تنظيمات مسلحة تستخدم العنف. ولأنني ضد العنف، فلا أستطيع تشجيع الحركة الاحتجاجية، حتى لو كانت مطالبها مشروعة تماماً. يجب ألا ننسى أبداً أن 'داعش' كانت هناك».

«داعش» الآن جزء من الماضي باعتبارها كياناً ذا سلطة على الأرض. ومع ذلك، فإن الآثار التي خلفتها هذه التجربة الوحشية على تدريب الشباب في الموصل، وهيمنة الميليشيات الشيعية في أراضيهم السنية، والخوف

17 Alain Dieckhoff, *The Nation in All its States: National Identities in Motion*, [electronic version], Flammarion Editions, Paris, 2015, p. 24.

بوضوح في مقابلتها:

كما تعلمون، لدينا في العراق مجتمع رجالي، لا مكان فيه للنساء. على سبيل المثال، نادراً ما تجد مساحة، أو مكاناً، حيث يمكننا -نحن النساء- ممارسة نشاط ترفيهي أو التجمّع... غير مسموح لنا بدخول المقاهي ودور السينما والمسارح والملاعب... إذا تجرأت فتاة يوماً على المشاركة في نشاط جماعي، فستكون هدفاً سهلاً، وسرعان ما سيُصدّر الرجال أحكامهم عليها. والأسوأ من ذلك أن هؤلاء الرجال سيثيرون شكوكاً اجتماعية حول مصداقيتها وأخلاقها وسمعتها. فمكاننا هو المنزل؛ وعندما نخرج، علينا أن نظل يقظات للغاية وحكيماً للغاية، وأن نحترم الأعراف الاجتماعية، وننظر إلى الأسفل، وتسترّ، باختصار، نحن ملك للرجال، نحن المجال الذي يمارس فيه الرجال هيمنتهم...».

تعكس الجملة الأخيرة التي قالتها زهراء تماماً رؤية شائعة في أوساط جزء كبير من النخبة التي تولّت السلطة نتيجة الاحتلال الأميركي للعراق. فالدستور العراقي يعطي في الواقع حصّة للمرأة في البرلمان، ويمنحها ربع المقاعد. لكن هذا البرلمان نفسه حاول بوضوح شرعنة زواج القاصرات تحت سن التاسعة.¹⁹ ووفقاً لدراسة استقصائية، ففي مثل هذا السياق أعلن 84.6% من النساء اللاتي جرى استطلاع آرائهن أن ظروفهن المعيشية ساءت من احتلال العراق في العام 2003.²⁰ ولا يرجع السبب في أن النساء اليوم لديهن المزيد من الحقوق في الحياة اليومية إلى أنّ بول بريمر قد فرض حصّة 25% من المقاعد للنساء على النخب العراقية في «الجمعية الوطنية». بل على العكس من ذلك، فإن تزايد الضغوط والإكراه على المرأة العراقية يدفعهن إلى الحلم بمغادرة البلاد والذهاب إلى أماكن أخرى قد يجدن فيها كرامتهن. وهذا ما تخبرنا به ليلي، وهي فتاة من البصرة تبلغ من العمر 22 عاماً تخرّجت من معهد النفط، قائلة: «أحلم بمغادرة هذه المدينة والذهاب إلى أربيل. أموت هنا يومياً، فكل شيء حرام على فتاة مثلي: الموسيقى والسينما والمسرح والحب؛ كل شيء حرام».

في هذا البلد الذي يضم الآن مليوني أرملة و5 ملايين يتيم، لم يعد بلداً مُلهماً للشابات اللاتي يحلمن بحياة أفضل. وهذا هو السبب في كون بعض النساء -لا سيما في الجنوب- ينخرطن في الحركة الاحتجاجية، وهي حركة تسمح لهن بالتنفس وبأن يتمتعن بحرية نسبية وشيء من التمكين. تخبرنا هدى، وهي امرأة متزوجة من البصرة تبلغ من العمر 25 عاماً وتحمل شهادة البكالوريوس، عن ذلك بقولها: «تمنح الحركة الاحتجاجية النساء فرصة نادرة للغاية في أن يظهرن، وإن كان هذا الظهور نسبياً. وللحركة تأثير إيجابي على هذه الصلة العتيقة بين النساء والرجال». ومع ذلك، فهناك نساء -مثل شادية، وهي معلّمة من الموصل تبلغ من العمر 23 عاماً- لا يشاركن في الحركة الاحتجاجية لتحقيق أحلامهن بالتمكين؛ إذ تقول شادية: «أحلم أن أصبح فنانة وأمثل على المسرح، ولكن هذا المجتمع يقتل حلمي ومستقبلي وجمالي وشبابي. في هذا المجتمع الذكوري ليس لي مكان بصفتي امرأة... أحلم بالذهاب إلى إسطنبول، أو أي مكان حيث يمكن أن يكون لي وجود».

التناقض بين عالم خالد وعالم سرمد هو انعكاس لمحاظتين عراقيتين لم تعودا قادرتين على إنشاء أنماط للتفاعل ومساحات للالتقاء. وبينما نجد منصور -شاب شيعي من البصرة، يبلغ من العمر 26 عاماً، وهو أحد أفراد ميليشيا سرايا السلام التابعة لمقتدى الصدر- يكرّس حياته ونفسه لتحقيق حلمه الكبير (تحويل الدولة العراقية إلى جمهورية 'جعفرية' [نسبة إلى المذهب الفقهي الجعفري الشيعي])، فإن حلم مروان -شاب سني أعزب من الموصل- هو مغادرة بلده إلى الأبد، إذ يصفها بـ«الجحيم». وبالنسبة له، أوروبا هي أرض الأحلام، حيث «يمكنني أن أعيش كإنسان، وأن أعيش حياتي الشخصية، بعيداً عن كل هذه الكوارث. لا أريد أن أتبع خطى والدي، ولا أريد تكرار حياته، أريد أن أعيش حياتي بشكل كامل».

والفجوة نفسها نجدها بين منصور -الشباب العراقي الملتزم بتغيير العالم- ومروان -وهو شاب عراقي آخر ملتزم بتغيير عالمه هو- وكذلك بين حلم جعفر -وهو شاب من البصرة، يبلغ من العمر 24 عاماً- الذي يريد الذهاب إلى سوريا للجهاد إلى جانب بشار الأسد (الذي يعتبره حامي الأماكن الشيعية المقدسة في سوريا)، وحلم نور -طالبة سنية من الموصل، تبلغ من العمر 23 عاماً- التي ترغب في إتمام مسارها لتصبح ممثلة سينمائية. ويظهر تحليل المقابلات أن لدينا فتاتين على الأقل من الشباب العراقي، ليس هناك أي فرصة لخلق روابط وخطوط تواصل ومساحات للتفاعل فيما بينهما. وبالتالي، فنحن أمام فتاتين من الشباب بأحلام وأهداف وتصورات مختلفة لمستقبلهم.

النساء الشابات في مجتمع ذكوري مهيمن: استحالة الظهور

منذ عام 2003، أصبح عراقٌ ما بعد صدام حسين الأرض الموعودة للمنظمات غير الحكومية التي تدافع -بشكل أساسي- عن حقوق المرأة. إذ تقع ظروف المرأة العراقية ومسألة تمكينها في صميم عمل ما لا يقل عن 200 منظمة. وقد خصص بول بريمر -الحاكم الأميركي للعراق بعد عام 2003- جزءاً كبيراً من عمله لهذه القضية، لإيمانه أن تمكين المرأة العراقية ركنية من ركائز عملية إعادة الإعمار. ومع ذلك، كان لصدام حسين نفس الرؤية فيما يتعلق بالمرأة، قبل فترة طويلة من بول بريمر. فمن خلال تحديث القطاع التربوي الاجتماعي، كان صدام حسين يرى أن الانتقال إلى العالم الحديث سيمر بلا شك من خلال خلق صورة جديدة للمرأة العراقية المثقفة والمتعلمة والمؤهلة؛ فحشد مؤسسات الدولة لإنجاز هذه المهمة التاريخية، فبينما كانت نسبة 34% فقط من الفتيات في المدرسة في عام 1970، زادت هذه النسبة بعد عشر سنوات إلى 95%. وفي أوائل الثمانينيات، شكلت النساء 46% من المعلمين و29% من الأطباء و70% من الصيادلة و46% من أطباء الأسنان.¹⁸ ومع ذلك، فإن حروب صدام حسين المتواصلة بين 1980 و 2003 عرضت للخطر كل ما أنجزه. فخلال هذه الفترة، وجدت النساء العراقيات أنفسهن مرة أخرى في ظروف اجتماعية واقتصادية وأمنية مزعجة للغاية، تميزت بالعنف والبطالة واستحالة الوصول إلى التعليم ومصادر الثقافة.

وعلى الرغم من نوايا بول بريمر، فإن وصوله إلى بغداد عام 2003 لم يغير الظروف المعيشية الحقيقية للمرأة. بل على العكس من ذلك، تضاءلت احتمالات تمكين النساء العراقيات في سياق اتسم بالاحتلال والإرهاب وانعدام الأمن، وكان الرجال، على نحو متصاعد، يُحكمون سيطرتهم الكاملة على المجتمع. هذا ما قالتها لنا زهرة -التي تبلغ من العمر 26 عاماً، والحاصلة على شهادة جامعية من مدينتها البصرة-

19 Ribau, Patrick. «Women of Iraq», La Pensée, vol. 384, no. 4, 2015, pp. 125-130.

20 Katrina LEE-KOO «Gender-Based Violence Against Civilian Women in Postinvasion Iraq: (Re)Politicizing George W. Bush's Silent Legacy», in Violence against Women, 2011, vol. 17, n. 12, p.1621.

18 Adel Bakawan, Iraq, a century of failure, Tallandier editions, 2021, p.151 (the publishing of this book is expected in August).

الشباب في سياق عنف معمم:

التطبيع والاستيعاب الداخلي مقابل الرفض

انتشار العنف الطائفي في العراق منذ العام 2003 إلى اليوم هو استمرارٌ لـ«ثقافة عنف» ميّزت تاريخ الدولة منذ نشأتها في العام 1921. فقد أحدثت الحروب والاحتلال والمقاومة والثورات وأحداث التمرد والاحتجاجات تحولاتٍ في البلاد وجعلتها مصنعاً لجميع أشكال العنف؛ من العنف الذي مارسه القوميون والشيوعيون والبعثيون والجماعات العرقية والقبايل والإرهابيون وأخيراً الطائفيين. وبهذا المعنى، فقد تأسس البيت العراقي على العنف منذ قيام الدولة إلى يومنا هذا. وانتقل هذا الأمر من جيل إلى جيل، وأصبح هو برنامج التنشئة الاجتماعية الذي لا يتوقف أبداً. وتعتبر مؤسسات مثل الأسرة والحي والمدرسة والمسجد والجامعة، بل والمتاحف، أماكن يمكن أن تنتقل فيها ثقافة العنف هذه.

نظراً لهذا الوضع، فإن السؤال المتعلق بالشباب هو مدى قيام السياق العراقي بتطبيع العنف وتدجينه واستيعابه كظاهرة اجتماعية. يعتقد عليّ -وهو شاب من البصرة يبلغ من العمر 26 عاماً، ولديه شهادة جامعية ويشارك في ميليشيا «سرايا السلام»- أن السلاح هو الوسيلة الوحيدة لحل النزاعات، ويقول: «من يخبرك أنه ليس لديه سلاح فهو غير صادق، لأن الأسلحة منتشرة في كل مكان، من شمال البلاد إلى جنوبها؛ كلنا مسلحون. فجميع النزاعات، حتى أصغرها، تحلّ بالسلاح». وخطابه هذا يتكرر باستمرار ويتأكد من خلال جزء كبير من الشباب الذين قابلتهم في الجنوب، حتى بين أولئك المشاركين في الحركة الاحتجاجية الذين يرون أن العنف الثوري وحده هو ما يمكنه تغيير الأوضاع. حسن شاب من البصرة يبلغ من العمر 24 عاماً، وهو متزوج وليس لديه أطفال، ولكنه عاطل عن العمل، ولذا فليس لديه دخل؛ يوضح لنا قائلاً: «الحرب حالة طبيعية في المجتمعات، وهي جزء منا، فعندما لا نضع في اعتبارنا هذا الواقع، سُرعان ما يدمرنا الآخرون. على أي حال، هذا وضعي اليومي، وهذا ما أراه في كل يوم».

هذه الرؤية للعنف لتغذيها علناً -وعلى الدوام- النخب الحاكمة الجديدة، لتبرير نوع من العنف يمكن وصفه بالطائفي. وكما صرّحت علناً حنان الفتلاوي -وهي نائبة شيعية منتخبة، ورئيسة حركة إرادة- قائلة «من ينقتلون سبعة شيعية، أريد قبائلهم ينقتلون سبعة سنة (حين يُقتل سبعة من الشيعة، أريد أن يُقتل في مقابلهم سبعة من السنة) هذا هو التوازن!»²¹ إن العواقب الكارثية لهذا الوضع على التكوين الأيديولوجي لفئات معينة من الشباب واضحة تماماً. نجد، مثلاً، أنّ جعفر -وهو شاب من البصرة يبلغ من العمر 23 عاماً، نشأ على هذه العقلية الطائفية- يخبرنا، وبدون أيّ تحفظ، أنّ «السنة قتلوا آلاف الشيعة، ولهذا السبب حربنا ضدّهم مقدّسة، الشيعة في خطر مستمر، وعلينا أن نبقي يقظين». ويؤكد مؤمن -وهو شاب يبلغ من العمر 24 عاماً، ولم يحصل على أي شهادة- كلمات جعفر، قائلاً: «أعتقد أنه إذا لم تستدب أكلك الذئاب... يجب علينا نحن الشيعة أن نكون أقوياء... انظر إلى ما فعله بنا الإرهابيون. لقد ذبحوا الآلاف منا، ويدعمهم السنة الذين فرحوا بمذابح 'داعش' ضدنا».

من جانب آخر، فإن الشباب الذين التقيتهم من محافظة الموصل يشكّون بشدة في مسألة انتشار ثقافة العنف. فمثلاً عبد الله -وهو طالب سني يبلغ من العمر 25 عاماً- يرفض تماماً عنف الدولة والعنف الموجه ضد الدولة، لأنه يعتقد أن «العنف ليس حلاً، بل مشكلة». أما

كريم -وهو طالب سني يبلغ من العمر 22 عاماً- فيحلم بالعيش في مجتمع بلا عنف، ولكن لأن حلمه بعيد المنال في بلده، فقد لجأ إلى قراءة كتبه، وترفض سلوى أيضاً -وهي مسيحية من الموصل تبلغ من العمر 23 عاماً- «جميع أشكال العنف، فالعنف ليس حلاً».

ومع التسليم بأنه من شبه المؤكد وجود شباب في محافظتي البصرة والموصل يفكرون بشكل مختلف، وأن بالإمكان ملاحظة الترابط بين المجموعتين، علينا الإقرار بأن خط ترسيم الحدود بين شباب الموصل وشباب البصرة هو واقع اجتماعي ملحوظ. وهذا الواقع يعكس الحالة العامة لمجتمع ممزق تماماً من الناحية الإقليمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. وحتى اليوم ليس هناك أي قوة سياسية مؤثرة على المستوى الوطني يمكنها أن تقدّم حلاً لإنقاذ البلاد من هذا التمزق.

خاتمة

في العراق اليوم صراع بين جيلين: الجيل الذي سبق سقوط بغداد وذلك الذي جاء بعد تأسيس نظام ما بعد 2003؛ الجيل الذي أدار البلاد منذ 2003، وذلك الذي هو في حالة من العداء الهيكلي معه؛ الجيل الذي لديه إمكانية الوصول إلى جميع الموارد، وذلك المحروم منها جميعاً؛ الجيل الذي يجلس على قمة الهرم المجتمعي، وذلك الذي يزرع في أسفله. ولكل جيل سماته وأحلامه وأسلوب عمله واتجاهاته واستراتيجياته في العمل.

وُلد الجيل الذي عارض نظام صدام حسين في بلد يحكمه نظام شمولي، حيث يتحكم حزب البعث في أدق تفاصيل المجتمع، وكان فرداً واحد -هو صدام حسين- يمثّل الحقيقة المطلقة. كان الجيل الذي عارض هذا النظام يحلم بالديمقراطية الليبرالية، ومجتمع من المواطنين، وإنهاء الديكتاتورية. لكن نُفي هذا الجيل إلى إيران وأوروبا والولايات المتحدة، وانخرط في نضال عسكري ودبلوماسي ضد نظام البعث. ثم انتهى به المطاف إلى تولي السلطة في العام 2003، نتيجة الاحتلال الأميركي للبلاد. ومنذ وصوله إلى السلطة وإلى يوم الناس هذا، أنشأ هذا الجيل نظاماً سياسياً، توسّط في العلاقات بين الدولة والمجتمع، ويشوبه عدد من السمات. من تلك السمات: الطائفية المدرجة في النظام،²² واستشراء الفساد، والتصنيف الاجتماعي، والامساواة البنوية القائمة على توزيع الربح على أسس عرقية وطائفية، وتحويل الدولة إلى ميليشيات،²³ وحالة «الإدارة المشتركة»، التي صار بموجبها استقلال العراق أمراً رمزياً فحسب، لأن البلاد في الواقع تُحكّم اليوم من خلال تعاون فعّال -بل وشراكة هائلة- بين واشنطن وطهران.

في مواجهة هذا الجيل الذي تولّى السلطة منذ العام 2003، نشأ جيل من شباب البلاد المولودين في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. ويتبنّى هذا الجيل -الذي انتقل إلى سن النضج في ظلّ حالة عامة من التشطّي الإقليمي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي وفي سياقات من النزاعات السياسية والاجتماعية المختلفة- أنماطاً متنوعة من استراتيجيات العمل في بناء الذات؛ وهي استراتيجيات تتسم بانعدام الثقة في النظام والتمزق البنوي للنظام الذي شكله الجيل السابق. ويظهر من مسارات هذا الشباب العراقي الجديد والتزاماته وخصائصه أن هناك اعتقاداً مشتركاً إلى حد كبير بأن النظام يمثّل الشر المطلق ومصدر جميع المآسي، وأن الخروج من الأزمات المزمنة لا يمكن أن يحدث حتى يتم إلغاء هذا النظام. ولذلك اعتُبر النظام هو العدو رقم

22 تبعاً لتقليد متبع في الدولة العراقية، فإن 50٪ من المناصب يشغلها الشيعة و25٪ للسنة، و20٪ للأكراد، و5٪ للأقليات.

23 منذ العام 2014 شهدت الدولة العراقية تنامي «الحشد الشعبي»، الذي يضمّ حوالي 75 تنظيمًا مسلحاً. ولكن علينا أن نلاحظ هنا أن عدد التنظيمات يتغير بانتظام؛ فبعض المجموعات تختفي ويظهر غيرها، ومن هنا تأتي صعوبة تحديد عدد موثوق به.

واحد.

بعبارة أخرى، يعيش الشباب العراقي اليوم -بعد أن عانى من حقائق سياقية مختلفة تماماً، نتيجة لمسارات النزاع التي تُحددها الجغرافيا، وما يترتب عليها من تأثير على العلاقات مع الدولة والمليشيات والعنف- في عوالم نُظمت بشكل مختلف، ينتقلون فيها إلى الإدماج بطرق مختلفة تماماً. يجب على الحكومة العراقية، في السياق العراقي شديد التضارب، أن تُدير على وجه السرعة عدداً من القضايا الملحة، ومنها عودة «داعش»، والهجوم التركي على شمال العراق، وتعمق الخلاف بين أربيل وبغداد، واندفاع بعض التنظيمات العسكرية نحو التطرف، وخطر الحرب الأهلية، وسيناريو «يمنية» العراق، وإمكانية الإفلاس الاقتصادي التي تلوح في الأفق. في غضون ذلك، من الراجح أن يعتمد الإدماج الهادف للشباب العراقي على تطوير مشروع سياسي لدولة عراقية متجددة؛ ولكن لا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال تفاعلات بين المواطنين. وتكشف سرديات شباب البلاد أننا في حالة من الانقسام الاجتماعي والثقافي، بل والإقليمي، تعوق نشوء هذه «الهوية العراقية» بشكل طبيعي. ويتطلب الانتقال من الهوية الطائفية إلى الهوية الوطنية -أي من الطائفية إلى القومية المنفتحة والجامعة- وجود مخرج «سلس» من حالة «الانقسام»، بدون تلك الوحشية التي اتسم بها تاريخ العراق. لكن للأسف، في وضع تواجه فيه الدولة قضايا وجودية تتعلق بأمنها وسيادتها واستقرارها، يظلّ الشباب العراقي -والاهتمام باحتياجاتهم وطموحاتهم واندماجهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي الكامل- خارج قائمة الأولويات.

لكن في الوقت نفسه، فإن هذا الجيل الذي لم يعاصر شمولية نظام صدام حسين وتشكّل في بلادٍ تحتلها الولايات المتحدة، والذي وضعه لنفسه هدف تحقيق سيادة القانون في العراق؛ لا يستسلم للخوف على الرغم من وحشية التنظيمات العسكرية. فهذا الجيل يحب أن يُرى ويُسمع صوته عبر مقاربات مختلفة، لا سيما تلك المتعلقة بشغل الأماكن العامة، ولا يريد أن يُنظر إلى أفرادهِ على أنهم ضحايا، بل جهات فاعلة تحلم بتغيير العالم. غير أن هذه التطلعات لا تمنع الشباب من التورط في التنظيمات العسكرية أو مجرد الانسحاب من العمل الجماعي، بغرض متابعة أولويات أخرى. فبالنسبة لبعض الشباب العراقي، يُعتبر الانخراط في حركة اجتماعية نموذجاً للعمل. ولا يُصنّف النظام على أنه عدو يجب هزيمته، بل خصم في نزاع. فالهدف ليس اختفاء نظام ما بعد 2003، وإنما التفاوض للحصول على ما هو ممكن. لم نعد نضع أنفسنا في إطار نموذج ثورة أو مستقبل أو صراع نهائي، بل نبني جسوراً مع مخالفينا في السلطة. ولكن بالنسبة لشباب آخرين، اعتمدت استراتيجيات أخرى، تتمثل في النأي بأنفسهم عن المجال السياسي عموماً. وهذه الفئات -غير المسيّسة لأسباب مختلفة (خوفاً من انتقام المجتمع أو الاستبعاد أو عدم الحصول على التعليم والثقافة، وما إلى ذلك)- تضع استراتيجيات عملها اليومية دون مراعاة متغيرات القضايا السياسية. فهم لا يشعرون بالقلق تجاه أساليب عمل الحركة الاحتجاجية، أو آليات القمع التي تستخدمها الحكومة أو الميليشيات.

مبادرة الإصلاح العربي

مبادرة الإصلاح العربي مؤسسة بحثية رائدة للبحوث الفكرية المستقلة، تقوم، وبشراكة مع خبراء من المنطقة العربية وخارجها، باقتراح برامج واقعية ومنبثقة عن المنطقة من أجل السعي إلى تحقيق تغيير ديمقراطي وعدالة اجتماعية. تقوم المبادرة بالأبحاث السياسية، وتحليل السياسات، وتقدم منبراً للأصوات المتميزة وتلتزم في عملها بمبادئ الحرية والتعددية والمساواة بين الجنسين.



contact@arab-reform.net

باريس - بيروت - تونس